﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: 36 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

فِرْعَوْنُ أُنموذَجٌ لِلتَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ

لَمّا ذُكِر الطَّبعُ على القلوبِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؛ دُلَّ عليه بِما ذُكِرَ مِن قولِ فِرعونَ وفِعْلِه عطفًا على ما تقدَّمَ مِن قولِه وقولِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ؛ فإنَّهُ قَصَدَ ما لا مَطْمَعَ في نَيْلِه من بابِ التّيهِ والحَماقَةِ تَكَبُّرًا وتجبُّرًا؛ لفسادِ قلبِه، فقال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرْحًا﴾: (صرح) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على ظُهورِ شَيْءٍ وبُروزِه، ومِن ذلكَ: الصَّريحُ، وهو الظّاهِرُ لِخُلوصِه مِمّا يُخْفيه ويَسْتُرُه، ومنهُ قولُهُم: لَبَنٌ صريحٌ؛ إذا زالَتْ عنهُ الرَّغوة، والصَّرح: بيتٌ واحِدٌ يُبنى مُنْفَرِدًا ضخمًا عاليًا في السَّماء؛ وذلكَ لِظُهورِه ظُهورًا قويًّا فلا تَحْجُبُه أبنيةٌ حولَهُ، وكُلُّ بِناءٍ عالٍ يُسَمّى: صَرْحًا[2]، وهو المَعْنى الوارِدُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾.

2) ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾: (سبب) تدلُّ تصريفاتُها على امْتِدادٍ دقيقٍ قويٍّ موَصِّلٍ، ومِنْ ذلكَ: السَّبَبُ؛ وهو: الحَبْل الذي يُصْعَدُ به النّخْلُ، أو يوصَلُ به إلى الماءِ في البئرِ، وجمعُهُ: أسْبابٌ[3]، وسُمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صرح).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).

به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: 84][1]. والأسبابُ في قول الله سبحانَهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أبوابُها؛ لأنَّها منافِذُها الموصِلَةُ إلى ما بداخِلِها[2].

3) ﴿فَأَطَّلِعَ﴾: (طلع) تدلُّ اشتقاقاتُها على ظهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوْضِعُ طُلوعِها[3]. ويُقال: أطلَعَهُ على سِرِّه؛ إذا أظهرَهُ لَهُ، واسْتَطْلَعَ رأيَه: إذا اطَّلَعَ على باطِنِ أمرِه، وطالَعَهُ بِكُتُبِه، وطالعَ الشَّيءَ، أي: اطَّلَعَ عليه، والطُّلْعَةُ: الرُّؤْيَة[4]. وقولُ الله تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بمعنى: أنْظُر إليه[5].

4) ﴿زُيِّنَ﴾: (زين) تَدورُ اشْتِقاقاتُها على حُسْنِ الشَّيء وتَحْسينِه، ومِنْهُ: الزَّينُ؛ وهو ضِدُّ الشَّين[6]، وزيَّن لهُ؛ بمعنى: حسَّنَ لَهُ. وقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: حسَّنَ الشَّيطانُ لَهُ عملَه السَّيِّء، فانْهَمَكَ فيهِ انْهِماكًا بليغًا لا يَرْعَوي عنهُ بِحالٍ[7].

5) ﴿تَبَابٍ﴾: (تب) تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى الخَسار والهَلاك، ومنهُ: التَّباب؛ وهو الخُسْران، ويقال: تَبًّا للكافِر، أي: هلاكًا لَهُ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]، أي: تَخْسيرٍ[8]. والتَّباب في قولِ الله تَعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ هو الخَسارُ والهَلاكُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دَلَّت الآيةُ الكريمةُ على مُخاطبَةِ فِرْعونَ لِهامانَ بما يَحْمِلُ في طَيّاته تكذيبًا صريحًا لِموسى ﷺ في دَعْوَتِه، قائلًا: يا هامانُ ابْنِ لي بنَاء عاليًا عظيمًا؛ لعَلّي أبلغُ أبوابَ السَّماواتِ وما يوصِلُني إلَيْها، فأنْظُر إلى إلهِ موسى بِنَفْسي، وإنّي لأظنُّ موسى كاذبًا في دعواه أنَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (سبب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (طلع).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 212.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(7) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 184.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تب).

لنا ربًّا، وأنَّه فوقَ السَّماواتِ. وهكذا زُيِّن لفرعونَ عملُه السَّيِّءُ فرآه حسنًا، وصُدَّ عن سبيلِ الحقِّ؛ بسبب الباطِل الذي زُيِّن له، وما احتيالُ فرعونَ وتدبيرُه لإيهامِ النّاس أنّه مُحِقٌّ وموسى مبطِلٌ إلّا في خسارٍ وهلاكٍ[1].

بيانُ تَكْذيبِ فِرْعَوْنَ لِموسى عليه السلام

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾:

الواوُ في ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عاطِفةٌ الجملةَ بَعْدَها على قولِ فِرْعَون وقولِ المؤمنِ، فيكون بينَ الجملةِ المعطوفَةِ والمَعْطوفِ عليها تناسُبٌ في المعنى؛ فأمّا تناسبُهُ مع مقالةِ فِرْعَون السّابقةِ فظاهرةٌ؛ لِجَريان القولِ مِن قائلٍ واحدٍ، وإن اختلفَ مَجْلِسُ القولِ؛ إذِ الأوَّل كان في مَجْلِسِ مُحاجَّته مع موسى عليه السلام، وهذا المَوْضِعُ في مَجْلِسٍ آخرَ[2]. وأمّا تناسُبُهُ مع قولِ الرَّجُل المُؤْمِن؛ فلِما فيه مِن بيانِ صورَةٍ مِن صوَرِ الطَّبع على قلبِ المُتَكَبِّرين الجَبابِرَةِ، المَذْكورةِ قبلُ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[3].

ذِكْرُ صورَةٍ مِنْ صوَرِ الطَّبْعِ عَلى قُلوبِ الجَبابِرَةِ

نُكْتَةُ نِدائِهِ هامانَ بِـ (يا):

جاء النِّداءُ في قول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ بحرفِ النِّداء (يا)، وهو مَوْضوعٌ في الأصلِ لنداءِ البعيدِ، والظّاهر أنَّ الأمرَ المَذْكورَ ﴿ٱبْنِ لِي﴾ وُجِّه لهامانَ عن قُربٍ، فيكون في النِّداء بِـ (يا) تنزيلُ القريبِ منزلةَ البعيدِ؛ تعظيمًا له وتفخيمًا، وفي ذلك دلالَةٌ على شِدَّة احْتياجِ فرعونَ إليه واعتمادِهِ عليه، وذلك يومِئُ إلى تَهافُتِ دَعْوى فرعونِ الأُلوهيَّةَ؛ لافتقارِه إلى وزيرِه في تَدْبيرِ أمرِه، أو أنّه ناداه بنداء البعيد لإنزال البُعدِ الرّتبيّ بينهما منزلةَ البُعد الحِسّيّ.

تَهافُتُ دَعْوى فِرْعَوْنَ الأُلوهيَّةَ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 471.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 145.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 217/ 68.

دلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱبۡنِ﴾:

في الأمْرِ استِعْلاءٌ ظاهِرٌ وافْتِقارٌ باطِنٌ

﴿ٱبۡنِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾ فعل أمرٍ من البناءِ، وهو أمرٌ باقٍ على دلالتِهِ الأصليَّةِ من إرادة الإيجاب والإلزام، ويتضمَّن ضربًا من ضُروبِ الافْتِقارِ المُبطَّنِ، فكان في الأمرِ استعلاءٌ ظاهرٌ وافتقارٌ باطِنٌ.

بلاغَةُ المَجازِ في إسْنادِ البِناءِ إلى هامانَ:

شِدَّةُ عِنادِ فِرْعَوْنَ وتَعْمِيَتِهِ الحَقَّ عَنِ الخَلْقِ

إسنادُ البناءِ إلى هامانَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾؛ مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببيّة، فهو من إسناد الفِعْلِ إلى سببِه؛ إذ هامانُ وزيرٌ، ويَمْتَنِعُ بحسَبِ العُرْف والعادةِ أن يُباشِر الوزيرُ البناءَ، فيكون المرادُ: يا هامانُ مُرْ مَن يَبْني لي صرحًا[1]. وفي إسنادِ البِناء إلى هامانَ إيماءٌ إلى أهَمّيَّة الأمْرِ وعِظَمِ شأنِهِ عندَ فِرْعَون؛ إذْ وُجِّه خِطابُهُ إلى وزيرِه المُقَرَّب، وذلك يَقْتَضي اهْتِمامَ فِرْعَون بتَحْقيقِ غايَتِه مِنْهُ؛ وهي غايَةٌ في ظاهِرِها الوُصولُ إلى أسْبابِ السَّماء، وفي حَقيقَتِها عنادٌ وتَعْمِيَةُ الحقِّ عن الخَلْقِ.

معنى اللّامِ في ﴿لِي﴾ ودِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

إرادَةُ فِرْعَوْنَ تَرْسيخَ الشُّعورِ بِالتَّفَرُّدِ والعَظَمَةِ

اللّام في ﴿لِي﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾ تدلُّ على الاخْتِصاص، وذلكَ دالٌّ على شدَّة اهْتِمامِه بهَذا الصَّرح[2]؛ إذْ ليسَ المُرادُ بناءَ أيِّ صرحٍ، بل بناءُ صرحٍ يختصُّ به، ويكون شاهدًا على قوَّتِه وجبروتِه، فكأنَّ لسانَ حالِه يقول: ابْنوهُ لي وحْدي؛ فَهو لي ولِعَظَمَتي. فلامُ الاخْتِصاصِ مُشْعِرَةٌ بإرادتِهِ تَرْسيخَ الشُّعورِ بالتَّفرُّد والعظَمةِ. ويُقَوّي هذهِ الدّلالةَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾ على المَفْعولِ به ﴿صَرۡحًا﴾؛ فإنَّ التَّقديم مفيدٌ الحَصْرَ والاخْتِصاصَ.

(1) عوني، المنهاج الواضح: 1/ 101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿صَرْحًا﴾:

فَخامَةُ الصَّرْحِ وشِدَّةُ ارْتفاعِهِ

نُكِّر لفظُ ﴿صَرْحًا﴾ من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ لإرادة التَّعظيم والتَّفخيم، أي: ابْنِ لي صرحًا عظيمًا فخمًا يَعْلو كلَّ بناءٍ آخرَ. ويجوز أن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ النَّوعيَّة، والمَعْنى: ابْنِ لي بناءً مخالِفًا المَعْهودَ مِنَ الأبْنِيَةِ؛ لغرابتِهِ وشدَّة ارْتفاعِهِ.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾:

بَيانُ الهَدَفِ مِنْ بِناءِ الصَّرْحِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما مِن شِبْهِ كمالِ الاتِّصال؛ وذلكَ لأنَّ أمرَ فِرْعونَ ببناءِ صرحٍ يبعَثُ في نَفْسِ المُخاطَب سُؤالًا، حاصِلُهُ: ما سببُ هَذا البِناء؟ وما الغايةُ مِنْ بنائِه؟ فجاءَ الجَوابُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾.

مَعْنى (لَعَلَّ)، ودِلالَتُها:

تَلْبيسُ فِرْعَوْنَ على قَوْمِهِ

(لَعَلَّ) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ حرف دالٌّ على التَّرجّي[1]؛ وهو طلَبُ الأمرِ القَريبِ الحصولِ، مع أنَّ ما ذَكَرَه مِن بلوغِ أبوابِ السَّماوات متعذِّرٌ، إلّا أنَّه أخرجَ هَذا الأمرَ المُتَعَذِّر في صورَةِ القَريبِ الحُصول؛ إيهامًا وتَلْبيسًا على قومِهِ.

دلالَةُ تَأْخيرِ المُسْنَدِ الفِعْليِّ:

إيغالُ فِرْعَوْنَ في الإيهامِ والتَّلْبيسِ

أُخِّر المسنَدُ الفعليُّ ﴿أَبْلُغُ﴾ من قول اللهِ تَعالى حكايةً لقول فرعونَ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ تأكيدًا للنِّسبةِ، ومبالغةً في قُرْبِ تحقيقِهِ الغايَةَ من بناءِ الصَّرحِ، ووجهُ التَّأكيد ما في الجُمْلَةِ من تَكْرار النِّسبة؛ إذ فعلُ البُلوغ ﴿أَبْلُغُ﴾ أُسنِدَ إلى ياءِ المتكلِّم في ﴿لَّعَلِّيٓ﴾، وأُسنِدَ مرَّةً أُخْرى للضَّمير المُسْتَتِر فيهِ وجوبًا، والتَّقدير: أبلغُ أنا. وهذا التَّأكيدُ يُظهر إيغالَ فرعونَ في التَّلبيس والإيهامِ على قَوْمِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَبْلُغُ﴾:

تَصْويرُ السَّعْيِ المُسْتَمِرِّ لِبُلوغِ السَّماواتِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿أَبْلُغُ﴾ لإفادة استحضار الحدَثِ، وتَصْويره في صورَةِ الأمْرِ الواقِعِ وقتَ الكلام. كما أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ يُشْعِرُ بالتَّجدُّد والاسْتِمْرارِ، وأنَّ السَّعْيَ نحوَ بُلوغِ الأسبابِ ليسَتْ فِكْرَةً عارضَةً أو غايَةً بعيدةً، بل هو أمرٌ قائمٌ تُبذَلُ أسبابُهُ في الحالِ، وذلك مبالغةً في التَّلبيسِ على قومِهِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾:

عِظَمُ السَّماواتِ وعِظَمُ أبْوابِها

(أل) في ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ دالَّةٌ على العهدِ العلميِّ، والمرادُ: أسبابُ السَّماوات؛ كما جاء مصرَّحًا به بعدُ. ويجوز أن تكونَ (أل) دالَّةً على الجنسيّة الاستغراقيّة، والمَعْنى: لعلي أبلغُ الأسبابَ الكاملةَ التي لا أسبابَ غيرُها لعِظَمِها[1].

دلالة التّعبير بـ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ مادّةً وصيغةً:

مواصلة فرعون تضليله الإعلاميّ

تدلُّ تصريفاتُ (سبب) عَلى امْتِدادٍ دقيقٍ قويٍّ موَصِّلٍ، ومِنْ ذلِكَ: السَّبَبُ؛ وهو: الحَبْل الذي يُصْعَدُ به النَّخْلُ، أو يوصَلُ به إلى الماءِ في البئرِ، وجمعُهُ: أسْبابٌ[2]، وسمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، وعبّر فرعون هنا بالمصدر للدّلالة على مبالغته في التّحقّق من أمر موسى عليه السلام، ومتابعتِه له في كشف الحقيقة؛ وذلك من أجل استقطابه لثقة قومه.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تَعْظيمُ الأمْرِ وتَفْخيمُ شَأْنِهِ

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ بدلَ كلٍّ من كلٍّ أو بيانٌ[3]، وفائدتُهُ هاهنا: تفخيمُ الأمر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 314.

وتهويلُهُ؛ إذ إنَّ الشَّيءَ إذا أُبْهِمَ ثُمَّ بُيِّنَ؛ كان تفخيمًا لشأنِه، وهذا هو مرادُ فرعونَ[1]. كما أنَّ في البَيان بعدَ الإبهامِ تَشْويقَ السّامعِ إلى مَعْرِفَتِها[2]، وتفخيمًا لشأنِ عَمَلِه لكَوْنِهِ أمرًا عجيبًا؛ ليورَد على نَفْسٍ مُتَشَوِّقة إلى مَعْرِفَتِه، وهيَ نَفْسُ هامانَ[3].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يجوز أن تكونَ اسْتِغْراقيَّةً، فيكون المرادُ تعيينَ السَّماوات بكُلِّ جَوانِبِها وأبْعادِها، ويجوز أن تكونَ دالَّةً على الكَمال؛ وذلكَ لأنَّ فِرْعونَ كانَ يوهِمُ أتباعَه إلى سَعْيِهِ للوُصول إلى ما هو عظيمٌ في الكَوْنِ وهو السَّماواتُ.

إيهامُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ بِبُلوغِهِ جَميعَ أبْعادِ السَّماواتِ

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾:

الفاءُ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ تفريعيَّة دالَّةٌ على التَّسبُّب، فإنَّه لمّا ذُكر السَّبَبُ – وهو سَعْيُه للوُصولِ إلى أبوابِ السَّماوات – ؛ ذكر المُسَبَّب عنهُ – وهو اطِّلاعُه على إلَهِ موسى عليه السلام – فقالَ: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾، فالفاءُ رابِطَةٌ بينَ السَّبب والمُسَبَّب، وذلك يدلُّ على أنَّ الاطِّلاع هو الغايَةُ من رغبَةِ فِرْعونَ بُلوغَ السَّماوات[4].

بَيانُ الغايَةِ مِنْ بُلوغِ السَّماواتِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ(أطَّلِعَ) مادَّةً وصيغَةً:

الفِعْلُ (أطَّلِع) من الاطِّلاع – بتَشْديد الطّاء – ، وهو مبالغَةٌ في الطُّلوع، والطُّلوع: الظُّهور، والغالِبُ أن يكون الظُّهور حاصلًا من ارتفاعٍ[5]. وقولُ اللهِ تعالى حكايةً عن فِرْعون: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ يُفيد إظهارَ جُهْدٍ كبيرٍ وحِرْصٍ متوهَّمٍ للكَشْفِ عَن أمرٍ غَيْبِيٍّ، وفي التَّعبير بالفِعْلِ

سَعْيُ فِرْعَوْنَ اليائِسُ لِلاطِّلاعِ على الغَيْبِ

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 490.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 322.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

المُضارِع ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ تَصويرٌ له في صورةِ الحاصِلِ وقتَ الخِطابِ؛ ليَكونَ أدخلَ في التَّلبيس؛ حيثُ يُصَوِّر الاطِّلاع أمرًا حاضرًا عندَهُ.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الفِعْلِ (أَطَّلِعَ) بِـ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

الاغْتِرافُ الضِّمْنِيُّ بِعَدَمِ القُدْرَةِ عَلى بُلوغِ العُلوِّ المُطْلَقِ

فِعْلُ الاطِّلاع يَتَعدّى بحرفين: (إلى)، و(على)، فإن عُدّي بحرف الجرِّ (على)؛ دلَّ على أنَّ الظُّهور يكونُ مِن ارتفاعٍ، وإن عُدّيَ بحرف الجرِّ (إلى)؛ دلَّ على مُطْلَقِ الظُّهور[1]. وفي قولِ اللّه تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ عُدّي الفعلُ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾؛ لإفادَةِ مُطْلَقِ الظُّهور، وذلك يتضَمَّن إقرارًا ضِمْنيًّا بِعَدَمِ قُدْرَتِه على بلوغِ العلوِّ المطلقِ.

نُكْتَةُ إضافَةِ الـ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾:

الإمْعانُ في العِنادِ والكِبْرِ

أُضيف لفظُ ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قولِ اللّه تعالى حكايةً لقولِ فِرْعون: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لإظهار اسْتِهْزاءِ فرعونَ وتَهَكُّمه بما دعا إليه موسى عليه السلام مِنَ الحقِّ؛ حيثُ أضافَ الإلهَ إلى موسى عليه السلام؛ للدّلالة على التَّخْصيص؛ ليُفيد أنَّه لَو كانَ إلهًا؛ فأُلوهيَّتُه مُنْحَصِرَةٌ بموسى وحدَهُ، وهذا مِنْهُ إنكارٌ لأنْ تَكونَ الأُلوهيَّةُ عامَّةً، إمعانًا منهُ في الكِبْرِ والعِناد.

بلاغَةُ الجِناسِ بَيْنَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾:

التَّناغُمُ الصَّوْتِيُّ بَيْنَ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ

بينَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾ في قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ جناسٌ ناقصٌ[2]، وهو جناسٌ مطرَّفٌ؛ لوقوع الزّيادة بحرفٍ واحد في الآخِرِ[3]. والجناسُ في الآية يُحقِّق تَناغُمًا صوتيًّا، وذلك مِمّا يُعَزِّز المعانيَ المرادَ بيانُها.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

قرأ حفصٌ عن عاصمٍ منفردًا ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنَّصب، وقرأ باقي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.
(3) فيّود، علم البديع، ص: 285.

العشرَةِ ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ بالرَّفعِ[1]، فالرّفع على أنَّه معطوفٌ على ﴿أَبْلُغُ﴾، وأمّا النَّصب فعلى الجوابِ؛ تنبيهًا على أنَّ ما أظهره فرعونُ في صورة المُمْكِنِ هو تمنّي محالٍ غيرِ ممكنٍ البتَّة[2]. ويجوز أن يكون ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ جوابًا للأمرِ في ﴿ٱبْنِ لِي﴾ منصوبًا بـ (أن) مضمرة بعدَ الفاء[3].

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾:

التَّظاهُرُ بِالتَّرَوّي في اتِّهام موسى بِالكَذِبِ

الواوُ في ﴿وَإِنِّي﴾ من قَوْله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ عاطفةٌ الجُملةَ بعدَها على جُملةِ مقولِ القَوْلِ[4]. ويجوز أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والجملَةُ بعدَهُ في محلِّ نصبٍ حالٌ[5]، ومِنَ المُقَرَّر أنَّ الأصلَ في الحالِ أن لا تكونَ لازمةً، بل هي مؤقتةٌ بزمَن عاملِها، وهذا فيهِ تَلْبيسٌ عظيمٌ؛ إذْ يوحي كلامُه بأنَّ اتِّهامه لموسى بالكذبِ لَيْسَ أمرًا ثابتًا مُسْتَمِرًّا، وإنَّما هو أمرٌ عارضٌ، مِمّا يُظهر عندَ قَوْمِه كَمَن قالَ ذلكَ بَعْدَ تَفكيرٍ وتَجْديد نظرٍ، لا عَن تحامُلٍ متقدِّمٍ، ممّا يجعَلُ لِكَلامِهِ رواجًا لدى السّامِعين؛ إذِ النُّفوس تميلُ إلى تصديقِ مَن يُظهر التَّرَوّي في أحكامِهِ.

فائِدَةُ تَتابُعِ المُؤَكِّداتِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾:

سَعْيُ فِرْعَونَ لِإِقْناعِ قَوْمِهِ بِتَكْذيبِ موسى عليه السلام

أُكِّدت جُمْلة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ بـ (إنَّ) واللّام والجملة الاسميّة، وتكرار المسند إليه، مرّةً على أنّه اسم (إنّ)، ومرّةً على أنّه فاعل (أظنّه) المحذوف، مبالغةً في إرادةِ فرعون إقناعَ سامعيهِ بصِحَّة دعواهُ في تكذيب نبيِّ الله تعالى موسى عليه السلام، ولِيَنْفيَ عن نفسِه اتِّهامَ وزيره إيّاهُ بتَزَعْزُعِ اعْتِقادِه في دينِه، والمعنى: إنّي أفعلُ ذلك ليَظْهَرُ لَكُم كذِبُ موسى - وحاشاهُ - [6].

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 365.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69.
(3) الحربي، توجيه مشكل القراءات، ص: 415.
(4) صافي، الجدول: 24/ 248.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 157.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الظَّنِّ مادَّةً وصيغَةً:

بُـطْـلانُ يَـقـينِ فِرْعَونَ

الظَّنُّ في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ بِمَعْنى القَطع واليقين، وقرينةُ ذلكَ أنَّ اللّه سُبْحانَه سَمّى عزمَهُ هذا كيدًا، فقال ﷻ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[1]. وفي التَّعبيرِ عَنِ الظَّنِّ بالفِعْلِ المُضارِع دِلالَةٌ عَلى اسْتِمْرار هَذا الظَّنِّ عندَهُ ودوامِه عليه.

مَوْقِعُ كَلِمَةِ ﴿كَٰذِبًا﴾ مِنَ الإعْرابِ، ودِلالَةُ تَنْكيرِها:

تَـعْـظـيـمُ شَـأْنِ الكَذِبِ

﴿كَٰذِبًا﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لفِعْلِ الظَّنِّ، ونُكِّرَ لفظُ ﴿كَٰذِبًا﴾ لإفادَةِ التَّعظيم، أي: تعظيم شَأْنِ الكَذِبِ الذي جاء به موسى - وحاشاهُ - في زَعْمِ فِرْعون وادِّعائه. ويجوز أن يكونَ التَّنكير لإرادَةِ التَّحقير والتَّهوين، ويُؤَيِّده التَّعبيرُ بلَفْظِ ﴿كَٰذِبًا﴾ دونَ (كَذّابًا)، ولا تنافيَ بينَ الدّلالَتَيْن؛ إذْ يُمْكِنُ الجَمْعُ بينَهُما بأنْ يُقال: إنَّ فرعون أرادَ تَحْقيرَ موسى عليه السلام في ذاتِهِ بِما جاءَ بِهِ مِن هَذا الكذبِ العَظيم - وحاشاهُ عليه السلام -.

بلاغةُ الاحْتِراسِ في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾:

التَّكْذيبُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ ولا تَأَمُّلٍ في الأدِلَّةِ

جُمْلَةُ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ جاءت مُعْتَرِضَةً بِغَرَضِ الاحتراس؛ لِدَفْعِ أيِّ تَوَهُّم قد يطرأُ على هامانَ وقومِه، بأنَّ دَعْوَةَ موسى عليه السلام قَد أثَّرت في يقينِ فِرْعَوْن بدينِه وآلِهَتِه، أو أنَّه يتَّجِهُ إلى البحثِ بِعَيْنِ المُتَأمِّلِ في أدِلَّةِ المَعْرِفَةِ، فجاءَت الجُمْلَةُ لِتُؤَكِّد لَهُم أنَّ غايةَ فِرْعَون لَم تكُن سِوى نَفْيِ دَعْوى موسى بحُجَّةٍ حِسّيَّة تُقْطَعُ بِها، لا لِتأملٍ أو نَظرٍ في صِدْقِ دَعْوَتِه[2].

دلالَةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾:

الواوُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ استِئْنافيَّة[1]، والجملة بعدَها مُسْتَأْنفةٌ نَحْويًّا، جيءَ بِها لزيادَةِ التَّعجيب مِن حالِ فِرْعَوْنَ وعِنادِه.

دلالَةُ الكافِ في (كَذلِكَ):

تَزْيينُ سوءِ عَمَلِ فِـرْعَـوْنَ مِـثـالٌ لِلضَّلالِ الشَّديدِ

في قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أسلوبُ تشبيهٍ[2]؛ حيثُ يُشير إلى أنَّ تزيينَ سوء العمل لفرعون قد بلَغَ مِن القوَّة والتَّأثير مبلغًا عظيمًا، بحيثُ أصبَحَ تزيينه مثالًا في ذاته لا يُشبهه شيءٌ إلّا نفسه[3]. وهذا التَّعبيرُ يُظهر المُبالغة في شدَّة ضلال فرعون وعَمى بَصيرته بسبَب انْغماسه في الكفر والطُّغيان. ففي هذا الأسلوبِ تحذيرٌ مِنَ الوقوع في مِثْلِ حالِه، وإنذارٌ بعاقبةِ تزيينِ الباطلِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ:

بَيانُ شِـدَّةِ بُعْدِ شَأْنِ فِرْعَوْنَ عَنِ الحَقِّ والهُدى

جاءَ التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْد (ذلك) في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للإشارة إلى عظَمةِ التَّزيين وهَوْلِه[4]، وتأكيدِ شِدَّة بُعْد حال فرعون عنِ الحقِّ بسبب إيغالِهِ في الكُفْر والطُّغْيان، وهذا يُبرز مدى تأثير التَّزيين على قَلْبِه، حتَّى صار سوءُ عملِه زينَةً في عَيْنَيْهِ، ممّا زادَهُ ضلالًا وإعْراضًا عن سبيلِ الهدايَةِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالتَّزْيينِ مادَّةً وصيغَةً:

انْقِلابُ الباطِلِ حَـقًّـا في نَـظَـرِ فِرْعَوْنَ

جاء التَّعبير بمادَّةِ التَّزيين في قول الله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، للدّلالة على تَحْسين الباطل في عين فِرْعون حتّى بَدا له في صورةِ الحقِّ، وهو تزيينٌ بالغُ التَّأثير، جعلَهُ يحسَبُ الضَّلال هُدًى والباطلَ حقًّا. واخْتيرَ بناءُ فعلِ التَّزيين لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للتَّنبيه على ذاتِ التَّزيين بِصَرْفِ النَّظر عنِ المُزَيِّن[5]. فقد

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 157.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 212، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 70.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

يكون هذا التّزيين من قبل شيطانه، أو من قبل نفسه، أو حاشيته، كما أنَّ صيغة الماضي تُشيرُ إلى تمامِ التَّزيين وتحقُّقه فيهِ.

معنى اللّامِ في ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾:

اسْتِقْرارُ تَزْيِينِ الباطِلِ في قَلْبِهِ

اللّام في ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ تفيدُ الاختصاصَ؛ أي: أنَّ تزيينَ سوءِ العملِ كان خاصًّا بِفِرْعَون، حيثُ وقع في نَفْسِه وأثَّر عليهِ خاصَّةً، ثمّ أضلَّ قومَهُ تبعًا لضلالِهِ هو، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ التَّزيينَ قَد اسْتَقَرَّ في قلبِهِ وعَقْلِهِ، فصار يرى سوء عملهِ حَسَنًا، وازدادت غِوايَتُه وإعراضُه عن الحقِّ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى نائِبِ الفاعِلِ:

لَفْتُ النَّظَرِ إلى عاقِبَةِ فِرْعَوْنَ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾ على نائبِ الفاعِلِ ﴿سُوٓءُ﴾ مِن قولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هي إفادَةِ الاخْتِصاص والتَّوكيدِ، على أنَّ هَذا التَّزْيين كان خاصًّا بِفِرْعَوْنَ، فَهوَ المُتأثِّر الأوَّل بهذا التَّزيين، كما أنَّ هذا التَّقديم يُبرز أهمّيَّة ذِكْرِ فِرْعَونَ وموقعِه في السّياق قبلَ الإشارةِ إلى سوء عملِه، مِمّا يَلْفِتُ النَّظرَ إلى عاقِبَتِهِ بِوجهٍ أقوى وأبينَ.

نَوْعُ الإضافَةِ ودِلالَتُها في ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾:

الصِّلَةُ الوَثيقَةُ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ القَبيحِ

الإضافة في ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ إضافَةٌ بيانيَّة؛ حيثُ تُبيّن أنَّ السّوء هو نفسُه عملُ فِرْعونَ الذي زُيِّن له، وهيَ تُفيدُ أنَّ العملَ سَيِّئٌ وقبيحٌ في أصْلِه، وفي الإضافة إيماءٌ إلى العلاقَةِ الوثيقَةِ بينَ العَمَلِ وفِرْعَوْن، حيثُ يُنسب السّوء إليهِ، ويُحمَّل تَبِعَتَهُ.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَصُدَّ﴾:

بَيانُ التَّناسُبِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

الواوُ في ﴿وَصُدَّ﴾ مِن قولِ الله تَعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، فيكون بينَ الجُمْلتين توسُّط بينَ الكمالَيْن لاشْتِراكِهما في الخبريَّة، ولِما بَيْنَهُما

مِنَ التَّناسُب المَعْنَويِّ، وحسَّن الوصلَ اتِّحادُ الجملتَيْنِ في الفِعْليَّة، وبناءِ المُسْنَدِ فيهما لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه.

نُكْتَةُ تقديمِ التّزيين على الصّدّ:

قدّمتِ الآيةُ الكريمة فعلَ التّزيين على فعل الصّدّ؛ للإشارة إلى تقديم السّبب على النّتيجة، فالتّزيينُ للعمل هو الذي اقتضى بعد ذلك صَدَّه عن السّبيل الحقّ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَصُدَّ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَـيْنَ الـقِـراءاتِ القُرْآنيّةِ

قرأ ﴿وَصُدَّ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بضمِّ الصّادِ على البِناء للمَفْعولِ: عاصِمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ وخلفٌ البَزّار، وقرأ الباقون بفتحِ الباء ﴿وَصَدَّ﴾ بالبناءِ لِلفاعِل[1].

فأمّا قراءةُ البِناء للمفعولِ ﴿وَصُدَّ﴾؛ فلم يُنصَّ على الفاعل لا لِلجَهْلِ به، وإنَّما لإرادَةِ بَيان النَّتيجة والغايةِ وهو التَّزيين بِقَطْعِ النَّظر عن المُزَيِّن، وأمّا قراءةُ البناء للفاعلِ ﴿وَصَدَّ﴾، فدالٌّ على أنَّ المُزَيِّن هو الله تعالى؛ وذلك لأنَّ فرعونَ قد طلبَ ذلك بلِسانِ اسْتِعْدادِه، واقْتَضى ذلك سوءَ اخْتيارِه. ويجوز أن يكون الفاعلُ هو الشَّيطان، ونُسب فعلُ التَّزيين إليهِ لأنَّه المُتَسَبِّبُ في ذلك بالوَساوِسِ والخَطَرات[2].

نُكْتَةُ تَعْديَةِ فِعْلِ الصَّدِّ بِـ ﴿عَنِ﴾:

انحرافُ فِرْعَوْنَ عـن سَـبـيـلِ الهُدى والرَّشادِ

عُدّي فعلُ الصَّدِّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، وهيَ تدلُّ على المُجاوَزَةِ؛ للدِّلالة على أنَّ فِرْعَوْنَ قد تَجاوَزَ سبيلَ الحقِّ وانْحَرَفَ عنهُ نَتيجَةَ تَزْيينِ سوءِ عَمَلِه. فَحَرْفُ الجرِّ ﴿عَنِ﴾ يُشير إلى أنَّ فِرْعَون لَم يكتفِ بالعدولِ عَن طريقِ الحقِّ، بَل أوْغَل في الانحرافِ عنهُ إيغالًا بعيدًا.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 298.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 12/ 323.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

سبيلُ الحَقِّ هيَ السَّبيلُ الكامِلَةُ لِلصَّلاحِ

(أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهد[1]؛ أي: سبيل الحقِّ والرَّشاد الذي يعرفه السّامع[2]، ويُرادُ به الطَّريق الموصِل إلى اللّهِ تعالى. ويجوز أن تكون (أل) للكمال[3]، فتفيد أنَّ السَّبيل المقصودَةَ هي السَّبيل الكاملَةُ الصّالحة التي لا غِنى عنها للوصولِ إلى الهدايةِ والنَّجاة. ولا تَنافيَ بين المَعْنَيَيْن؛ لأنَّ سبيل الحقِّ والرَّشاد هي سبيلٌ كاملَةٌ مِنْ حيثُ صَلاحُها وكمالُها في توجيهِ النّاسِ إلى ما يُرْضي اللّه تعالى.

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

الإيغالُ في البُعْدِ عن سَبيلِ الحَقِّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مجازٌ بالاستعارةِ؛ حيثُ عُبِّر عَمّا يؤدّي إلى الحقِّ والرَّشاد بالسَّبيل وهو الطَّريق، فشُبِّه ما يؤدّي إلى الحقِّ بالسَّبيل بجامع التَّوصيل إلى غرضٍ ما في كلٍّ منهما، على سبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهذه الاستعارةُ تجعل الطَّريق رمزًا للحقِّ والرَّشاد، وتُظْهِر أنَّ الانحراف عنه ابتعادٌ عن الطَّريق، بل إيغالٌ في هذا البُعدِ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ﴾:

التَّناسُبُ المَعْنَويُّ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

الواو في ﴿وَمَا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[4]، وذلك لِما بين الجُمْلَتَيْنِ مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخَبَريَّة، وما بينَهُما مِنَ التَّناسب المعنَويِّ؛ إذِ الكلامُ في كِلَيْهِما عَنْ أحوالِ فِرْعَوْنَ، وحَسَّن الوصلَ اتِّفاقُ الجملتَيْنِ في الاسْميَّة. ويمكن أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها حاليّة على معنى: والحال أنّ كيده في تباب.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

نُكْتَةُ الإظهار في موضع الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ إظهارٌ لاسم فرعون في موضع إضماره، والعلّة في ذلك التّسجيلُ عليه بالكفر والضّلال.

بلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ:

بَيانُ حَتْميَّةِ خُسْرانِ كَيْدِ الظّالِمِينَ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قصرٌ إضافيّ، وطريقهُ: النَّفي والاستثناءُ، وذلك بقصر الموصوف على الصّفة، وهو أقوى طُرُق القَصْر؛ لإبرازِ حَصْر كَيْدِ فِرْعَون في نتيجةٍ واحدةٍ وهيَ الهلاكُ. ويُبرز هذا الأسلوبُ يقينيَّة العاقبةِ الإلَهيَّة، ويُظهِر التَّناقضَ بين قوَّة كيد فرعون في الظّاهر وعاقبته الحتميَّة، مِمّا يُقَلِّل مِن شأنه ويُؤَكِّد خَيْبَتَهُ. وفي جُمْلَةِ القَصْر تأكيدٌ وتنبيهٌ على حتميَّة هلاك كيدِ الظّالمين، وتحذيرٌ من الاغْترار بِقوَّتِهِم الزّائلة، وفيه بثُّ الطُّمأنينَةِ في نفوسِ المُؤمنين، بأنَّ كيد أعدائِهم مَهْما عَظُم فإنَّه لن يؤولَ إلّا إلى الخُسْران.

نُكْتَةُ إضافَةِ الـ﴿كَيْدُ﴾ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

بَيانُ صِلَةِ فِرْعَوْنَ بِالكَيْدِ وتَدْبيرِ الشَّرِّ والفَسادِ

أُضيف الـ﴿كَيْدُ﴾ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾؛ لإفادَةِ تَخْصيصِ الفِعْلِ بِهِ، لإبْرازِ صِلَتِه الكُلّيَّة بالكَيْدِ وتَدْبيرِ الشَّرِّ. ولِذا أُعيد الاسمُ الظّاهرُ ولَم يُضْمَر؛ لِئَلّا يُخَصَّ بِحَيْثيَّةٍ مِنَ الحَيْثيّات[1].

نوع الاستثناء في الآية:

قَطْعيَّةُ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ لِكَيْدِ فِرْعَوْنَ

الاستثناءُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ استثناءٌ مِن أحوالٍ مُقَدَّرة[2]، أيْ: أنَّ في الآيةِ حصرًا لِكَيْدِ فِرْعَون في حالٍ واحدةٍ وهيَ كونُه في تبابٍ؛ أي: هلاكٍ وخُسْرانٍ. وهذا يَقْتَضي أنَّ جميع الأحوالِ الأُخْرى المحتمَلَة لكَيْدِه، كالظَّفَرِ أو الفلاحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

والنَّجاح، مستثناةٌ وغيرُ واردَةٍ. وبِهَذا يُبْرِزُ النَّصُّ يقينيَّة العاقبةِ الوحيدَةِ لكَيْدِهِ، ويُؤَكِّد بُطلانَ جميعِ خُطَطِه ومساعيهِ في تحقيقِ أيِّ غايَةٍ سِوى الهلاكِ.

بلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ:

ارْتِبـاطُ كَـيْـدِ فِـرْعَـوْنَ الوَثيقِ بِالدَّمارِ والهَلاكِ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّة مجازيَّة، فيكون التَّباب – وهو الهلاك – مستعمَلًا ظرفًا مجازيًّا؛ للدّلالَةِ على شِدَّة المُلابسَةِ والتَّعلُّق[1]، وفي ذلك استعارَةٌ تبعيّة تُظهر شدَّة ارْتِباطِ كيدِ فِرْعونَ بالهَلاك، وفيها تصويرُ كيدِ فرعونَ في صورةِ ما لا يَقْتَصِرُ على مجرَّد الفعل أو التَّدبير، بل هو في حالٍ من الالتحامِ والتَّداخل التّامِّ مع الهلاكِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿تَبَابٍ﴾:

في التَّعبير بكلمة ﴿تَبَابٍ﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ دلالَةٌ على شِدَّةِ الخَيبَة وتمام الهلاك الذي آلَ إليه أمرُ فِرعون، ممّا يَقْتَضي أنَّ خُسْرانَهُ شامِلٌ مُطْلَقٌ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿تَبَابٍ﴾:

إحـاطَـةُ الـهَـلاكِ بِفِرْعَوْنَ إحاطَةً تامَّةً

نُكِّر لفظ ﴿تَبَابٍ﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾؛ للدّلالَةِ على التَّعظيم والتَّفخيم، فهو خَسارٌ عظيمٌ، وهلاكٌ جليلٌ[2]، وذلك يَقْتَضي إحاطةَ الهَلاكِ بِفِرْعون مِن كلِّ جوانبِهِ، بحيثُ لا يُمْكِنُه الإفلاتُ منه بحالٍ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الطَّريقُ والسَّبيلُ:

السَّبيلُ: هو الطَّريقُ الذي فيه سهولةٌ، ويُطلق على الطّريق المسلوكَةِ، ومِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أي: مسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

الطَّريقُ أعَمُّ مِنَ السَّبيلِ وأشْمَلُ

السُّلوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾ [النّحل: 69]، وقولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53]. ولسهولَةِ سلوكِ السَّبيلِ وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مُرادًا بها: ما يُسلَكُ لنيلِ الخيرِ، وأمّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النّساء: 98]، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ مِن خلالِه الخلاصُ مِن أذى الكُفّار وقَهْرِهم.

وأمّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأرجلِ، ثُمَّ استُعير لكلِّ مَسْلَكٍ يسلكه الإنسانُ، وهو لا يستلزِمُ السّهولَةَ كالسَّبيل، والغالب في الطَّريقِ إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أخصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّه يستلزِمُ السُّهولةَ بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزِمُها؛ فهو أعمُّ بِهَذا الاعتبارِ[1].

الكَيْدُ، والمَكْرُ، والخِداعُ:

الخِداعُ أعَمُّ مِنَ الكَيْدِ، والكَيْدُ أقْوى دلالَةً مِنَ المَكْرِ

الفرقُ بَيْنَها[2]: أنَّ الخداع إظهارُ أمْرٍ لِغَيْرِكَ مع إضمار خلافه، ولا يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعدَ نظَرٍ وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خَدَعَهُ في البيع؛ إذا غَشَّهُ، ولو كان ذلكَ بديهَةً مِن غير فِكْرٍ سابقٍ. بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظَرٍ. وأمّا المكر فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلوق - لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ.

(1) العسكريّ والجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، ودوري، دقائق الفروق، ص: 139 - 142، وداود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 281 - 284.

(2) العسكريّ والجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 213، 508.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»